صفحة سـوداء

بقلم الأستاذ احمد أمين

رووا أن عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب فى وصف مصر أن : « نيلها عجب ، وأرضها ذهب ، وهى لمن غلب » .

ورووا أن عتبة بن أبى سفيان كان عاملا لأخيه معاوية على مصر ، فبلغه أمور عن أهلها ، فصعد عتبة المنبر مغضبا وقال : « أيا حاملين ألأم أنوف ركبت بين أعين ، إنما قلمت أظفارى عنكم ليلين مسى إياكم ، وسألتكم صلاحكم لكم ، إن كان فسادكم راجعاً اليكم ، فأما اذ أبيتم إلا الطعن فى الولاة والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن على ظهوركم بطون السياط ، فان حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم » .

وقبل هذا وذاك ، جاء فرعون ، فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى »

وجاء أبو نواس مصر بعد ذلك فقال :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتى
ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية
أكول لحيات البلاد شروب
فان يك باق إفك فرعون فيكمو
فانّ عصا موسى بكف خصيب

واشتهر المصريون عند المؤرخين بالانهماك فى الشهوات وعدم النظر فى العواقب ، ولما رآهم ابن خلدون على هذه الحال قال فيهم : « كأنما فرغوا من الحساب » يريد أنهم لا يحاسبون أنفسهم على مايصدر منهم ، ولايخافون من عاقبة أعمالهم ، كأنما فرغوا من الحساب .

وظل مؤرخو العرب يرمون المصريين بالذل ، وقبول الضيم فى كل ما كتبوا — وكان من أشدهم المقريزى فى أول خططه ، فقد عقد فصلا فى أخلاق المصريين قال فيه : « وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات ، والانهماك فى اللذات ، والاشتغال بالترّهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات ، ولهم خبرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه ، وتلطف فيه ، وهداية اليه » . ثم رماهم بالذل ، وأخذ يحصى الاقوال فى ذلك : فروى عن كعب الأحبار أن « الخصب قال : أنا لاحق بمصر ؛ قال الذل : وأنا معك . وقال الشقاء : أنا لاحق بالبادية . فقالت الصحة وأنا معك » . وروى أن ابن القرية وصف أهل مصر فقال : « عبيد لمن غلب ، أكيس الناس صغارا ، وأجهلهم كبارا » .

وجاء بعده السيوطى فلم يخجل من أن يضع فى كتابه « حسن المحاضرة » فصلا عنوانه « السبب فى كون أهل مصر أذلاء يحملون الضيم » وقد جاء فيه « أن الشيخ تاج الدين كان يقول : إن الحكماء وأهل التجارب ذكروا أن من أقام ببغداد سنة وجد فى علمه زيادة ، ومن أقام بالموصل سنة وجد فى عقله زيادة ، ومن أقام بدمشق سنة وجد فى طباعه غلظة ، ومن أقام بمصر سنة وجد فى أخلاقه رقة وحسنا » والرقة والذل قريب بعضهما من بعض . وقال القاضى الفاضل : « أهل مصر على كثرة عددهم ، وما ينسب من وفور المال الى بلدهم ، مساكين يعملون فى البحر ، ومجاهيد يدأبون فى البر » .

ويذكرون الذل على أنه حقيقة ثابتة ، ثم يختلفون فى السبب فى ذلك ، فمن قائل ان المصريين غاظوا يوماً سعد بن أبى وقاص ، فدعا عليهم أن يضربهم الله بالذل ؛ وسعد عرف باجابة الدعوة .

إن كان ذلك فالخطب هين ، فمن الممكن أن يجتمع صلحاء مصر وورعاؤها فيقرءوا الفواتح والدعوات وما تيسر من القرآن الكريم ، ويهبوها لروح سعد ويطلبوا اليه أن يعدل عن دعوته ، ويطلب الى الله تعالى أن يرميهم بالعزة بعد الذل . وما أظن سعداً يصر على دعوته ، وقد عرف فى حياته بالسماحة والتودد .

ومن قائل : إن فرعون لما غرق كان معه أشراف القوم وأعزتهم ، فلما غرق غرقوا معه ، فلم يبق إلا الحثالة ، فأتى من نسلهم الجبناء الأذلاء . وهل ينتج الذليل إلا الذليـل ؟ وهذا القول أيضاً سهل رده ، فالمصريون قد نزل بين أظهرهم كثير من سادة اليونان والرومان ، وسادة العرب وسادة الأتراك ، وذابوا في مصر واختلطوا بأهلها ؛ فلِمَ يغلب الذلّ العزة وعهدنا دائماً غلبة الأعزاء ؟

أخطر الاسباب ما يلمح اليه الماكر « المقريزى » فهو يريد أن يبعث فى النفوس اعتقاداً بأن هذا سبب طبيعى يرجع إلى الاقليم وإلى الجو ، وإلى طبيعة الارض ، هو يريد أن يقول ان ذلك خلقة فيهم ، بل هو فى كل شىء حولهم فيقول « ان هواء مصر يعمل فى المعجونات وسائر الادوية ضعفا فى قوتها ، فاعمار الادوية ـ المفردة والمركبة ، المعجون منها وغير المعجون ـ بمصر أقصر منها فى غير مصر » وأشد من ذلك وأصرح قوله « ان قوى النفس تابعة لمزاج البدن ، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير ، قليلة الصبر والجلَد ، وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شىء الى شىء ، والدعة والجبن . . . ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة فى النفس لم تسكنها الأُسد ، واذا دخلت ذلت ولم تتناسل ، وكلابها أقل جرأة من كلاب غـــيرها من البلدان ، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخر ، ما خلا ما كان منها فى طبعه ملاءمة لهذه الحال كالحمار والارنب »

قول قاس أيها المؤرخ ! ولو صح ما قلت لكان حكما أبديا صارما ، فان لنا طاقة بتغيير كل شىء الا الجو والاقليم فماذا نصنع فيهما ، لو كان صحيحا قولك لاستوجب اليأس فى الاصلاح ، فما تفلح أمة ضرب عليها الذل والخضوع ، بل لوجب الرحيل من بلد يسمم جوها دائما أخلاق أهلها : وقديما قال الشاعر :

« واذا نزلت بدار ذل فارحل »

أخشى أن تكون متأثراً بآراء شيخك ابن خلدون وقد كان فى طباعه حدة وعنف ، وفى المصريين دعة ، فنظر اليها بطبعه الحاد نظرة فيها افراط وفيها مبالغة ـ لو كانت نظريتك صحيحة لما تعاقبت الذلة والعزة على الامة الواحدة فتعز بعد ذلة ، أو تذل بعد عزة ؛ « الجو واحد والاقليم واحد — وان فى تاريخ مصر نفسها صفحات بيضاء تتجلى فيها العزة بأجلى مظاهرها ، الحق — يا سيدى — أن الاقليم عامل ، ولكن ليس كل عامل ، فاذا كان الجو سما فالتربية والتعليم ترياق ، ألا ترى الى مثالك نفسه ، فقد ذكرت أن الادوية والمركبات والمعاجين يسرع اليها الفساد فى مصر لسوء الجو — لو عشت الى عصرنا لعلمت كيف تغلَّب العلم على الاقليم ، وصار من المستطاع فى يسر وسهولة أن يحفظ الدواء — بأبسط المعالجات — فى مصر كما يحفظ فى أوربا وأن التربية كذلك تفعل فى النفس الاعاجيب ، وكل ما نستطيع أن نستفيده منك أنك نبهتنا أنت وأمثالك من المؤرخين على أن فى مصر جبنا وفى مصر ملقا ، الى هنا نقبله منك ولكنا لا نستسلم له ، ولا نقر أنه طبيعى فينا . ولكن لنريك الامثال على خطأ تعليلك ولننبهك على نظرية ثبتت حديثاً وهى : ان الامم المتبدية الساذجة هى أكثر استسلاما للطبيعة وشؤونها ، والأمم المتحضرة تستطيع بعلمها وتربيتها وقوة عقلها أن تسخر الطبيعة لمصلحتها ، لا أن تخضعها الطبيعة لأمرها ، فنحن نستطيع أن نستفيد من وداعة الطبيعة فنكون وديعين الى حد ، فاذا أرادت أن تتجاوزه الى نفاق وملق وجبن قالت التربية « لا » بملء فيها ، وحق للتربية اذا قالت « لا » أن يكون « لا » .

وعبت كلاب المصريين بالضعف ، ويظهر أنك لم تر كلاب « أرمنت » وما هى عليه من بسطة فى القوة والجسم ، ولو قدر عليك أن ينبحك واحد منها ما سلمت بجلدك ، ولغيرت حكمك .

لقد احسستَ بان تعميم نظريتك خطأ بين ، فاستدركت وقلت « ومن المصريين من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور » أليس هذا — يا سيدى — نقضاً لقولك